

هجرة العقول بين قوى الطرد والجذب

د. محمد عبد العزيز ربيع

إن الحديث عن العقول في هذا المجال ينحصر في الحديث عن الكفاءات البشرية المؤهلة تأهيلا علميا وتكنولوجيا عاليا، والقادرة على الإسهام بفاعلية في عمليات التنمية المجتمعية بكافة أشكالها، خاصة التقدم العلمي والإنتاج الصناعي والتطوير التكنولوجي، وهي كفاءات نادرة لا تتوفر بالقدر الكافي في أي مجتمع من المجتمعات الإنسانية، مما يجعل الطلب عليها يتزايد يوما بعد يوم. لكن المؤسف في الأمر أن غالبية دول العالم لا تستطيع استخدام ما لديها من عقول ومواهب بشرية غير عادية، وأن معظم شعوب الأرض لا تقدر قيمة العقل أو العلم حق قدره. ويلاحظ الدارس لظاهرة هجرة العقول والمتابع لها أنها بدأت واستمرت تحت تأثير عاملين أساسيين: عامل الطرد أو الدفع إلى الخارج، وعامل الجذب أو الإغراء على القدوم من الخارج. وبينما تتوطن أهم عوامل الطرد في الدول المصدرة للعقول، تتوطن أهم عوامل الجذب في الدول المستوردة للعقول.

بدأت ظاهرة هجرة العقول تأخذ أبعادا واضحة وهامة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وهي الحرب التي تسببت في تدمير اقتصاديات العديد من دول أوروبا مثل ألمانيا وبريطانيا وفرنسا وروسيا. وفي ضوء تخلف الاقتصاد وعجز الدولة عن توفير الدعم المالي المطلوب لمعاودة مؤسسات البحث والتطوير السابق عهدا من ناحية، وتوفير ظروف ممتازة لممارسة البحث والتطوير والحياة في أمريكا، وإلى حد أقل في كندا وأستراليا من ناحية ثانية، فإن عشرات الآلاف من العلماء الأوروبيين، خاصة الألمان والبريطانيين قاموا بالهجرة من مواطنهم الأصلية والنزوح إلى العالم الجديد. ومما تستوجب الإشارة إليه في هذا المجال أن أمريكا وروسيا أجبرت بعض علماء ألمانيا على الهجرة إليها، وذلك من أجل دعم النشاطات العلمية والتكنولوجية فيها، وحرمان ألمانيا من إمكانيات تلك الكفاءات، وبالتالي العمل على تأخير نهضة ألمانيا. ولقد أخبرني أهم علماء العدسات في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية أن الأمريكيين لم يمنحوه سوى 48 للاستعداد للرحيل إلى بلادهم. ولقد كان ذلك العالم الذي تجاوز الثمانين من العمر الآن، ولا يزال يتكلم الانجليزية بلكنة ألمانية قوية، المسئول الأول عن تطوير العدسات التي تستخدمها الصواريخ والتلسكوبات العملاقة والكاميرات التي تحملها الأقمار الصناعية.

ولقد تكررت هجرة العقول الأوروبية إلى أمريكا وغيرها من الدول على مدى عقد التسعينات وذلك في أعقاب انهيار الماركسية وتفتت الاتحاد السوفيتي. ولقد جاءت معظم العقول المهاجرة من روسيا وبولندا وأوكرانيا وغيرها من دول كانت تعتبر من جزءا من الاتحاد السوفيتي. وتشير المعلومات المتوفرة عن قطاع الخدمات الصحية في أمريكا إلى أن حوالي 50% من كافة العاملين في ذلك قطاع هم من المهاجرين الجدد، جاءت نسبة كبيرة منهم من دول الاتحاد السوفيتي سابقا. وكما نعلم، كانت هجرة العقول اليهودية من دول الاتحاد السوفيتي هي المسئول الأول عن النهضة العلمية والتكنولوجية الكبيرة والسريعة التي شهدتها إسرائيل على مدى السنوات العشرة الأخيرة، وإنقاذ الاقتصاد الإسرائيلي مما كان يعانيه من ركود وعجز وتراجع.

لكن موجات هجرة العقول الأوروبية إلى أمريكا وكندا وأستراليا وإسرائيل كانت دوما موجات غير دائمة، إذ أن عودة الاقتصادات الأوروبية إلى النمو في الستينات من القرن الماضي أدت إلى توقف تلك الهجرات تقريبا. وبعد أن كانت ألمانيا في مقدمة الدول المصدرة للعقول في

الخمسينات من القرن العشرين، أصبحت اليوم أكبر الدول الأوروبية المستوردة للعقول من الخارج، خاصة العقول المتخصصة في تكنولوجيا المعلومات والاتصالات. كما أن عودة الاقتصاد الروسي إلى النمو بعد مضاعفة أسعار النفط أكثر من مرة في غضون سنوات قليلة، أدت إلى تراجع هجرة العقول الروسية إلى أمريكا وإسرائيل كثيرا. أما فيما يتعلق بالدول النامية، فإن ظاهرة هجرة العقول منها كانت ولا تزال عملية مستمرة، وذلك لأن أسبابها الرئيسية، ألا وهي قوى الطرد المتمثلة في ضحالة المؤسسات العلمية، وغياب الحريات السياسية والاجتماعية، وندرة فرص العمل المجزي، وضعف إمكانيات العيش الكريم، لا تزال تتفاقم يوما بعد يوم.

إن غياب مؤسسات البحث العلمي والتطوير التكنولوجي الجادة من حياة المجتمعات النامية عموما، ترك عقول تلك البلاد أمام خيارين لا ثالث لهما: التكيف مع الأوضاع العلمية والاقتصادية والاجتماعية المتخلفة على الأرض، والرضوخ للقيم المجتمعية التقليدية غير القادرة على وعي قيمة الكفاءات العلمية وأهميتها المجتمعية. وهذا من شأنه أن يجعل تلك الكفاءات عرضة لفعل عوامل النسيان والتآكل المعرفي والتحول تدريجيا إلى كفاءات ذات معارف متقدمة وقدرات علمية متواضعة وإسهامات متناقصة. أما الثاني فهو الهجرة لخارج الوطن بحثا عن ظروف عمل وحيات أفضل تتوفر فيها أجواء الحرية وإمكانيات البحث والتطوير وفرص الحياة المنتجة. ويشير واقع كل الدول المتخلفة والمجتمعات التقليدية ضعيفة النمو إلى أن نسبة كبيرة من عقولها المؤهلة علميا وتكنولوجيا عاليا هاجرت إلى الخارج، وأن غالبية الجزء المتبقي تحولت بفعل الزمن والترهل العلمي إلى بيروقراطيين يعملون في أجهزة الدولة ويدافعون عن سياساتها التي تحد من حرية العلم والعلماء، أو تحولوا إلى قادة تقليديين يؤمنون بالخرافات ويعملون على تكريسها على أرض الواقع. وهذا جعل تلك الكفاءات تغدو جزءا من مشكلة التخلف بدلا من أن تكون جزءا من حل تلك المشكلة وأداة من أدوات التغلب عليها.

وهنا أود الإشارة إلى أن أول كتاب صدر لي في حياتي كان عنوانه "هجرة الكفايات العلمية". ولقد صدر ذلك الكتاب في عام 1972 عن جامعة الكويت التي كنت أقوم بالتدريس فيها في حينه. وحسب معلوماتي، كان كتابي عن هجرة العقول هو أول كتاب يصدر عن تلك القضية بأي لغة من اللغات المعروفة لدينا. وباستعراض عوامل الهجرة ودوافعها، استطع الجزم بأن الأوضاع العربية الطاردة للعقول لم تتغير، وأن القوى التي كانت فاعلة في تشجيع تلك الهجرة وتغذيتها لا تزال نشطة كما كانت في السابق.

للنشر يوم الثلاثاء 16-10-2007

professorrabie@yahoo.com

د. محمد عبد العزيز ربيع

www.yazour.com